"تحليل الخطاب": الحد والمفهوم

المبحث الأول: الخطاب: مقاربة أولية

قبل الخوض في مسائل "تحليل الخطاب" النظرية والإجرائية، يبدو من الملائم أن نقف على بعض المفاهيم الأساسية في هذا الحقل البحثيّ، ولعل من آكد تلك المفاهيم وأولاها بالعناية والاهتمام مفهوم الخطاب. فهو مناط التحليل وبؤرة النظر. ولا غرابة في أن تختلف حدود الخطاب وتصوّرات الباحثين عنه.

فغنيٌّ عن البيان أن مفهوم الخطاب من أكثر المفاهيم دورانا على ألسنة علماء أصول الفقه قديما، ولا نحتاج إلى كبير عناء كي نقف على شدة تواتر هذا المفهوم في كلامهم. وكيف لا وهو مفهوم محوري في دراساتهم الأصولية. فهذا السرخسي يجمع "أسماء صيغة الخطاب في استعمال الفقهاء وأحكامها [في] هذه الأسماء [الـ]أربعة: الظاهر والنصّ والمفسّر والمُحكَم، ولها أضداد أربعة: الخفيّ والمُشكِل والمُجمَل والمتشابه"[1]. ولا ننسى القاعدة الأصولية الشهيرة القائلة إنّ "العبرة لعموم الخطاب لا لخصوص السبب"[2]. ويقول الآمدي أيضا: "فإن الخطاب القوليّ يستدعي وجوب الجواب، ولا كذلك الفعل"[3].

فلقد اعتنى علماء الأصول بمسائل تحليل الخطاب عناية فائقة، وقلّبوا النظر فيه أيّما تقليب، وأتوا بآراء واجتهادات لافتة.

---

(1) السرخسي، أصول السرخسي، ج1، ص163.

(2) المرجع نفسه، ج1، ص164.

(3) الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام، ج1، ص184.

غير أنّ وجهتنا في تحليل الخطاب لا تتوقف عند علماء الأصول، فحسب، بل هي تتعدّى ذلك إلى تبيّن ما وصل إليه علماء اللسانيات وباحثو تحليل الخطاب، في الدرس اللسانيّ الحديث. حيث إننا نجد منوالات ومقاربات جديدة، تتأثر بمستجدّات العلوم الإنسانية والتجريبية والصورية الحديثة.

أولا: الخطاب: حسب تعريف باربارا كاسّان (Barbara Cassin)

لم يكن لفظ الخطاب متّصلا في الأصل باللّغة اتّصالا مباشرا؛ إذ اللّفظ (discours)الفرنسي مشتقّ من الأصل اللاّتيني (discurrere) بمعنى «الجري هنا وهناك». وعندما بدأت لفظة ديسكورسيس (discursus) ـ عند نهاية الحقبة اللاّتينيّة ـ تأخذ معنى الخطاب، فقد كان معناها في البداية طريقا محفوفا بالشّكوك للمحادثة والمناقشة قبل أن تُحيل اللّفظة على تشكيل منطوق أو مكتوب للفكر، وهكذا أصبحت البلاغات الإغريقيّة للّوغس «logos» ومثلها البلاغات اللاّتينيّة للخطابة«oratio»، أصبحت بالنّسبة إلينا بلاغات للخطاب، لأقسام الكلام(الفعل، الفاعل، إلخ.) ولترتيب الخطاب(ديباجة، قضيّة، سرد، إلخ.) ولأجناسه(برهاني، مشاوريّ، قضائيّ...). إنّ تاريخ اللّفظ[لفظ الخطاب] وتاريخ استعمالاته، يوازيان تاريخ الفكر، وهكذا ففي القرن السّابع عشر ـ الذي أصبح فيما بعد قرن شفافيّة اللّغة والفكر في العرض ـ أمكن لديكارت أن يكتب«خطابًا» في المنهج،بمعنى ذلك«المسار» المنظّر والذي ما يزال النعت(discursif) في الفرنسيّة مُحافظا على دلالته ذاتها. ومع ذلك، ليس الخطاب في البلاغة وسيلة تعبير عن الفكر

فحسب، بل هو قبل ذلك جهة مستقلة، إنّه «تيّار» من باثّ إلى سامع أو قارئ، وإنّه عمل يستهدف تحقيق أثر مّا، يشهد بذلك كلّ خطاب منذ خطاب السفسطائيين. وتقترح اللّسانيات تعريفا موسّعا للخطابات باعتبارها مسارات قوليّةً فرديّة قابلة للانفصال[عن غيرها] عن طريقها يجعل المتكلّمُ أو الكاتبُ«اللّسانَ» «كلامًا» بالمعنى الذي وضعه دي سوسّير لهاذين اللّفظين(انظر بنفنيست: مسائل اللّسانيات العامّة) كما يحلّل ـ مع أوستين مثلا ـ مختلف الأعمال(القوليّة واللاّقوليّة وأعمال التّأثير بالقول) التي ينجزها الخطاب. ويسلّط علم التّحليل النفسي وعلم الاجتماع اليوم الضّوء المناسب على كلّ خطاب لكشف اللاّوعي أو الإيديولوجيا. وبشكل أعمّ، يُعَدّ الخطاب، في ضلّ عُلويّة المنوال اللّساني موضوع علم ونقدٍ، في مقابل الكلام المُفسَّر أو المرسوم بالقداسة، ويصبح«حقل الخطاب» موضوع أبحاث كثيرة راهنة.

- Dictionnaire des genres et notions littéraires, Encyclopaedia Universalis / Albin Michel, Paris, 2001, p.199.

الخطاب

عن معجم الأجناس والمفاهيم الأدبية، دار الموسوعة الكونية وألبان ميشال، باريس،2001، ص.199.

ثانيا: تعريف الخطاب في معجم اللسانيات لديبواه وغيره:

جاء في معجم اللّسانيات(J.Dubois et al, p.150) أنّ الخطاب يدلّ على أربعة معانٍ، يمكن إرجاع إثنين منها إلى اختلاف في التسمية. فالمعنى الأوّل يرادف فيه الخطابُ الكلامَ والمعنى الثّاني يرادف فيه الخطابُ القولَ أو الملفوظَ.

ويبرز المعجم أنّ للخطاب معنيين آخرين أحدهما ينتمي إلى البلاغة والآخر وارد في بعض التّوجّهات اللّسانيّة المعاصرة.

ولعلّ ما تشكو منه الإسهامات العربيّة المحدودة في اللسانيات نقلا للمعرفة اللسانية أو نقدا لها أو إنتاجا وابتكارا، وما أقلّ ذلك، لعلّ ما تشكوه ليس خصيصة عربيّة ولا سمة محليّة، بل هو من مميّزات العلوم الإنسانيّة، ولعلّ ما يذكره معجم اللسانيات المشار إليه أعلاه من كون مصطلح الخطاب(discours) يلتبس بالقول أو الملفوظ (énoncé) فيكون هو إيّاه، بمعنى أنّنا نعرّفه في هذا الاعتبار كما يلي:

«الخطاب وحدة مساوية للجملة أو هي أكبر منها وتتشكّل هذه الوحدة من متتالية تكوّن رسالةً (message) ذات بداية ونهاية» ولعلّنا نكاد نجزم بمطابقة عبارة سيبوية في حدّ الكلام(=الجملة) للحدّ السّابق إذ يقول صاحب الكتاب:

غير أنّ كلمة خطاب تعني في البلاغة «متتاليةً من التمشّيات الخَطابيّة التي يُقصد بها الإقناع أو إثارة العواطف، وهي تمشيات تنتظمها قواعد دقيقة. نميّز بين الجنس البرهاني(عتاب أو مدح) والجنس المشاوري(نصيحة أو نهي) والجنس القضائيّ(دفاع أو اتهام). ويتركّب الخطاب الخَطابي من ستّة أجزاء لا تدخل جميعها بالضّرورة في خِطاب:

المقدّمة وطرح الموضوع وسرد الوقائع وعرض الحجج(وسائل الإثبات) ودحض الاعتراضات والنّتيجة التي تقنع المتقبّل وتُثيره. وترتبط الخطابات أيضا بالأطر والظّروف التي قيلت فيها: الخطبة المنبريّة (الدّينيّة) وخطاب رجُل القانون(مرافعة، اتهام) والخطاب الأكاديمي(تخليد الذّكرى)».

ويعني الخطاب في التّصوّر اللساني المعاصر له كلّ قول أكبر من الجملة منظورًا إليه من زاوية نظر قواعد تضمين[إدراج] متواليات من الجُمل.

ولم يكن للفظ الخطاب أن يدلّ قبل تحليل الخطاب إلاّ على مرادف القول من زاوية نظر لسانيّة. إنّ التقابل بين القول والخطاب يشير ببساطة إلى التّقابل بين ما هو لساني وما هو غير لساني. فاللسانيات تشتغل على الملفوظات التي تُوضَع للتحليل مجتمعةً في مدوّنة، وأمّا قواعد الخطاب، أي دراسة المسار الخطابي الذي يعلّل ترابط متواليات الجمل، فكانت تُلحق بمناويل أخرى، وخصوصا بكلّ منظور يأخذ المتكلّمَ بعين الاعتبار.

- J.Dubois et al: Dictionnaire de linguistique, Larousse, Paris, 2001.

ثالثا: تعريف الخطاب عند دومينيك مانغنو Dominique Maingueneau

ورد في كتاب دومينيك مانغنو:«الكلمات المفاتيح في تحليل الخطاب» الصادر عن دار سوي Seuilسنة 1996، بالصفحة 28 أنّ الخطاب ذو دلالة عامّة باعتباره نشاط فواعل واقعين في سياقات معيّنة. ومثلما يفترض الخطاب تمفصل اللغة وفق معايير غير لسانية، فإنّه لا يكون موضوع مقاربة لسانيّة صرفة.

ويدخل الخطاب في سلسلة من المقابلات يتّخذ ضمنها دلالات أدقّ، من ذلك خصوصا:

- ثنائية الخطاب/ الجملة: إذ يمثّل الخطاب وحدة لسانية تتشكّل من تتابع لجملٍ. وبهذا المعنى تحدّث هاريس(Harris)(1952) عن «تحليل الخطاب» وتكلّم بعضهم عن«نحو الخطاب». ونفضّل اليوم الحديث عن النّص وعن اللسانيات النصيّة.

[نفهم ضمنيًا أنّ الخطاب يطابق النّص في الدلالة، إذا تابعنا المعنى السالف الذكر]

- ثنائية الخطاب/ القول(énoncé): فضلا عن سمته باعتباره وحدة لسانية(=قولا) فإنّ الخطاب يُشكّل وحدة تواصل تنظمّ إلى شروط إنتاج محدّدة أي إنّه ينتمي إلى نمط قولي محدّد: حوار تلفزي، مقال صحفي، رواية، إلخ. من هذا المنظور يُحيل القول والخطاب على وجهيْ نظر مختلفتين:«إنّ نظرة تُلقى على نصّ من جهة هيكلته في اللسانْ تجعل منه قولا، أمّا دراسة شروط هذا النّص دراسةً لسانيّةً، فتجعل منه خطابا» (غسبن، 1970، ص.10)(Guespin).

- ثنائية الخطاب/ اللسان(langue):

(أ) يتقابل اللسان مُعرّفا بوصفه نظامَ قيمٍ افتراضيةٍ مع الخطاب، وذلك في استعمال اللسان في سياق مخصوص، وهو استعمال يحصر هذه القيم وينشئ أخرى في الوقت ذاته. هذا التمييز يُستعمل بكثافة في المعجم، إذ يتّصل الإحداث المعجميّ (néologie lexicale) بالخطاب بشكل خاصّ.

(ب)يتقابل اللسان مُعرّفا بوصفه نظاما يتقاسمه أفراد مجموعة لسانية، مع الخطاب باعتباره [أي الخطاب] استعمالا محصورًا لهذا النظام. ويمكن أن يتعلّق الأمر بـ:

(1) تموقع في حَقل خطابي(«الخطاب الشيوعي»،«الخطاب السوريالي»...)،

(2) نوع من الخطاب(«خطاب صحفي»، «خطاب إداري»، «خطاب روائي»، «خطاب تدريس في الفصل»...)،

(3) إنتاجات صنف من المتكلّمين («خطاب الممرّضات»،«خطاب الأمّهات»...)،

(4) وظيفة لغوية («الخطاب السجالي»،«الخطاب التوصيفي» (prescriptif)...).

غالبا ما يقع انزلاق من نظام القواعد إلى المدوّنة: يعني الخطاب الاشتراكيْ القواعد التي تسم موقفا تلفّظيا بكونه اشتراكيا كما يعني مجموعة الملفوظات المحمولة بالفعل انطلاقا من هذا الموقف أيضا. هكذا يقول فوكو(Foucault): «نُسمّي خطابًا مجموعةَ الأقوال التي تنضوي تحت تشكيل خطابي واحد»(أركيولوجيا المعرفة، باريس، غاليمار، 1969، ص.153).

- ثنائية الخطاب/ النصّ: يُعتبر الخطاب تأليفا بين النصّ وسياقه.
- ثنائية الخطاب/ الخبر(récit ou histoire)

الخطاب في كتاب دومينيك مانغنو:ألكلمات المفاتيح لتحليل الخطاب، سلسلة mèmo دار Seuil، باريس، 1996، ص ـ ص.28ـ29.

- Dominique Maingueneau : Les termes clés de l'analyse du discours, Seuil, Paris, 1996,p— p.28_29.

رابعا: تعريف الخطاب عند أوليفيي روبول (Olivier Reboul)

يُحدّدُ الفرنسي أوليفيي روبول المقصود بالخطاب حيث يقول : هذا الاصطلاح، الذي صار حالياً ادعاءً فارغاً من طرف كل العلوم يشتمل بالفعل على عدة معانٍ:

1- المعنى الشائع : الخطاب هو مجمع منسجم من الجمل المنطوقة جماهيرياً من طرف نفس الشخص عن موضوع معطى، ومثال ذلك (خطاب انتخابي). ويمكن أن يعني عن طريق التوسع، نصاً مكتوباً. لكنه في الأخير جنس محدود جداً، خصوصاً في ثقافتنا، إنتاج شعائري واحتفالي شيئاً ما، ومثاله: خطاب استقبالي بالأكاديمية الفرنسية.

2- المعنى اللساني المختزل ، بالنسبة للسانيين المعاصرين ، يُعتبر الخطاب (متوالية من الجمل المشكلة لرسالة لها بداية وانغلاق) عن (ديبواه ، 1973) إنه إذن وحدة لسانية تساوي الجملة أو تفوقها ومثال ذلك في لغة التربية: حكمة، مقال،...

3- المعنى اللساني الموسع : تأخذ اللسانيات الاصطلاح بمعنى أكثر اتساعاً . إنها تقصد بالخطاب مجموع الخطابات (بالمعنى المختزل) المرسلة من طرف نفس الفرد أو من طرف نفس الجماعة الاجتماعية ، والتي تعرض طبائع لسانية مشتركة..."[1].

المبحث الثاني: مقدمة لتحليل الخطاب

يعلق بعض الباحثين العرب على اتجاهات تحليل الخطاب في الغرب بقوله: إن أغلب اتجاهات تحليل الخطاب السائدة في الغرب- كما هو واضح- تميل إلى دراسة المرامي البعيدة للكلام أو النص من خلال وسائل متعددة[2]. والواقع أنّ هذا الباحث يروم عبر هذا الكلام أن يمهّد الأمر ليعود إلى التراث النقدي والأصولي حتى يمتح منه ما يراه مساويا لتحليل الخطاب، فإذا به يعتبر أنّ مصطلح لحن الخطاب عند علماء أصول الفقه يكافئ مصطلح تحليل الخطاب. ولعلّ مثل هذه الرغبة الجامحة في ربط الجديد بالقديم تُخفي مزالق نفسية تكاد العين تراها تنداح بين السطور.

قد تكون المقارنة المحايدة والمنهجية أجدى، ولكن يأبى كثير من الباحثين إلا ربطا تعسفيا، في كثير من الأحيان بين النظريات الغربية الحديثة وبين تراثنا النقدي والفكري، عموما، بشكل يدعو في كثير من الأحيان إلى مزيد التمعن وإعمال العقل والتروّي.

---

(1) أوليفيي روبول، لغة التربية: تحليل الخطاب البيداغوجي، ترجمة عمر أوكان، إفريقيا الشرق، 2002م، ص41-42.

(2) انظر مساهمة الدكتور جمعان عبد الكريم، على الأنترنيت في موقع "منتدى اللسانيات" بتاريخ 30 أوت 2007.

وبالعودة إلى تعريف "تحليل الخطاب" نجد أنّ موسوعة ويكيبيديا تعرفه كما يلي:

"تحليل الخطاب هي مقاربة منهجية للعلوم الاجتماعية والإنسانية. إنها مقاربة متعددة الاختصاصات كمية وكيفية، تدرس سياق الخطاب الشفوي أو المكتوب ومحتواه"[1].

وتمضي الموسوعة في عرض نبذة عن تاريخ "تحليل الخطاب" بالإشارة إلى انطلاق هذه المقاربة في الستينات من القرن العشرين في كل من فرنسا وبريطانيا العظمى والولايات المتحدة الأمريكية.

هذه المقاربة المتعددة الاختصاصات تستقي كثيرا من مفاهيمها من حقول علم الاجتماع والفلسفة وعلم النفس والإعلامية وعلوم الاتصال واللسانيات والتاريخ.

إنها مقاربة تنطبق على كثير من المواضيع المتنوعة والمختلفة، من ذلك انها تهتم بالخطاب السياسي والديني والعلمي والفني. وعلى النقيض من تحليل المحتوى، في تعريفه التقليدي، يهتم تحليل الخطاب بمفاهيم الخطابات الشفوية والمكتوبة المدروسة ولغتها وأنظمتها السردية.

والفرق بين "تحليل الخطاب" و"تحليل المحتوى" أنّ هذا الأخير يرى في الخطاب انعكاسا لواقع خارجي، أما "تحليل الخطاب" فيعتبر الخطاب نفسه واقعا. بالنسبة إلى تحليل المحتوى، يتم البحث أحيانا عبر تحليل الوثائق عن تمثيل مراوغ للواقع، في حين أننا في تحليل الخطاب نجد سلسلة من المواقف والتعليقات التي هي علاقات تسلط أو إقصاء أو احتواء.

(1) **L'analyse de discours** est une approche méthodologique des sciences sociales et humaines. L'analyse de discours est une approche multidisciplinaire qualitative et quantitative qui étudie le contexte et le contenu du discours oral ou écrit.

من وجهة نظر منهجية، يتخذ تحليل المحتوى عامة قولا في حجم الجملة أو الفقرة، موضوع دراسة. أمّا تحليل الخطاب فيهتم بأقوال لها حجم مجموعة كلمات أو كلمات وأحيانا مجموعة حروف.

إن الاختلافات النظرية والمقاربات المنهجية المتباعدة تناقصت ومن الصعوبة بمكان الآن أن نرى اليوم بين تحاليل المحتوى والخطاب مقاربات مختلفة جذريا.

ولعله من المفيد أن نعرّج بسرعة على أهمّ المبادئ النظرية لتحليل الخطاب منها أنهل مقاربة سوسيو دلالية. إذ تأخذ بعين الاعتبار سياق القول وخصائص القائل، والخصائص الدلالية للقول. إن تحليل الخطاب يعتبر الاشتغال اللساني للخطابات التي يرى فيها واقعة تستحقّ التحليل.

إلى ذلك فإن تحليل الخطاب هو تحليل بنيوي حيث يستعير عموما رصيدا نظريا وتحليليا من المقاربة البنيوية أو بعد البنيوية. إن تحليل الخطاب يدرس ما يسميه لويس ألتوسير (Louis Althusser) "التكوينات الخيالية". إنها علامات ذاتية المتكلم والصور البيانية (الواعية وغير الواعية) والنحو وأشكاله المتنوعة. إنه يدرس أيضا ما يسميه ميخائيل باختين (Mikhaïl Bakhtine) "التناص"، أي العلاقة بين النصوص أو طريقة تفاعل النصوص فيما بينها. وعلى خلاف ميشال فوكو (Michel Foucault) يصادر تحليل الخطاب على أنّ الخطاب الشفوي أو المكتوب هو مثل كون تبرز فيه القيود. وينبغي أن يُبرز التحليل ما يوجد في الخطاب من آثار القيود والتناقضات والمقاومة. من منظور جاك لاكان (Jacques Lacan)، تكوّن هذه الآثار صلات "رمزية"

(بين ممثلين ودالّين، مثل موضوع القول) لا تتميّز عن العلاقات الخيالية فحسب (بين تمثيلات مثل أنا والآخر)، بل وكذلك تتميّز عن واقع *الحامل* (حضور في البنية، غياب الموضوع، المتكلم في القول).

يتميز تحليل الخطاب باعتماد الإحصاء، حيث إنّ بعض مقارباته تركز على التحليل الإحصائي النصي. إذ يُدرك الخطاب بوصفه مجموعة من المعطيات النصية. هذه المقاربة التي توجد خاصة في علم الاجتماع، تستعمل برمجيات علمية تستعين بالحاسوب[1].

تحليل الخطاب: مداخل وإشكاليات

إنّ تحليل الخطاب هو الحقل البحثيّ الذي يُعنى بتتبع مظهر خطابيّ معيّن للوقوف على درجة تكراره من أجل صياغة اطّراده، فهدفه هو الوصول إلى اطّرادات وليس إلى قواعد معيارية، باعتبار أنّ معطياته خاضعة للسياق الفيزيائي والاجتماعي وأغراض المتكلمين واستجابة المستمعين...[2] ولذلك يتبنّى محلّل الخطاب المنهجية التقليدية للسانيات الوصفية محاولا وصف الأشكال اللغوية التي ترد في معطياته دون إغفال

(1) Un logiciel comme Alceste opère une classification automatique des discours, dont il fournit une mise à plat inspirée des méthodes de la statistique descriptive. Prospéro fournit des outils interactifs d'investigation pour suivre l'évolution de grands dossiers dans lesquels les discours engagent des acteurs hétérogènes aux prises avec des conflits et des incertitudes. Lexico et SATO permettent une analyse textuelle dans laquelle le chercheur garde le contrôle de son processus de recherche et du cheminement de son analyse.

(2) محمد خطابي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام النصّ، بيروت، المركز الثقافي العربي، 1991، ط1، ص49.

المحيط الذي وردت فيه. فمحلّل الخطاب يحاول أن يكشف الاطّرادات في معطياته وأن يصنّفها[1].

وبالعودة إلى تعريف "تحليل الخطاب" نجد أنّ موسوعة ويكيبيديا تحدّه كما يلي:

"تحليل الخطاب هي مقاربة منهجية للعلوم الاجتماعية والإنسانية. إنها مقاربة متعددة الاختصاصات كمية وكيفية، تدرس سياق الخطاب الشفوي أو المكتوب ومحتواه[2]".

وتمضي الموسوعة في عرض نبذة عن تاريخ "تحليل الخطاب" بالإشارة إلى انطلاق هذه المقاربة في الستينات من القرن العشرين في كل من فرنسا وبريطانيا العظمى والولايات المتحدة الأمريكية.

هذه المقاربة المتعددة الاختصاصات تستقي كثيرا من مفاهيمها من حقول علم الاجتماع والفلسفة وعلم النفس والإعلامية وعلوم الاتصال واللسانيات والتاريخ.

إنها مقاربة تنطبق على كثير من المواضيع المتنوعة والمختلفة، من ذلك انها تهتم بالخطاب السياسي والديني والعلمي والفني. وعلى النقيض من تحليل المحتوى، في تعريفه التقليدي، يهتم تحليل الخطاب بمفاهيم الخطابات الشفوية والمكتوبة المدروسة ولغتها وأنظمتها السردية.

(1) أورده محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية: تأسيس نحو النصّ، تونس، كلية الآداب منوبة – المؤسسة العربية للتوزيع، 2001، ج1، ص155، نقلا عن محمد خطابي، لسانيات النص، مرجع مذكور، ص49.

(2) L'**analyse de discours** est une approche méthodologique des sciences sociales et humaines. L'analyse de discours est une approche multidisciplinaire qualitative et quantitative qui étudie le contexte et le contenu du discours oral ou écrit

والفرق بين تحليل الخطاب وتحليل المحتوى أنّ هذا الأخير يرى في الخطاب انعكاسا لواقع خارجي، أما تحليل الخطاب فيعتبر الخطاب نفسه واقعا. بالنسبة إلى تحليل المحتوى، يتم البحث أحيانا عبر تحليل الوثائق عن تمثيل مراوغ للواقع، في حين أننا في تحليل الخطاب نجد سلسلة من المواقف والتعليقات التي هي علاقات تسلط أو إقصاء أو احتواء.

من وجهة نظر منهجية، يتخذ تحليل المحتوى عامة قولا في حجم الجملة أو الفقرة، موضوع دراسة. أمّا تحليل الخطاب فيهتم بأقوال لها حجم مجموعة كلمات أو كلمات وأحيانا مجموعة حروف.

إن الاختلافات النظرية والمقاربات المنهجية المتباعدة تناقصت ومن الصعوبة بمكان الآن أن نرى اليوم بين تحاليل المحتوى والخطاب مقاربات مختلفة جذريا.

ولعله من المفيد أن نعرّج بسرعة على أهمّ المبادئ النظرية لتحليل الخطاب منها أنها مقاربة سوسيو دلالية. إذ تأخذ بعين الاعتبار سياق القول وخصائص القائل، والخصائص الدلالية للقول. إن تحليل الخطاب يعتبر الاشتغال اللساني للخطابات التي يرى فيها واقعة تستحقّ التحليل.

إلى ذلك، فإنّ تحليل الخطاب هو تحليل بنيويّ حيث يستعير عموما رصيدا نظريا وتحليليا من المقاربة البنيوية أو بعد البنيوية. إن تحليل الخطاب يدرس ما يسمّيه لويس ألتوسير (Louis Althusser) "التكوينات الخيالية". إنها علامات ذاتية المتكلم والصور البيانية (الواعية وغير الواعية) والنحو وأشكاله المتنوّعة. إنه يدرس أيضا ما يسمّيه ميخائيل باختين (Mikhaïl Bakhtine) "التناص"، أي العلاقة بين

النصوص أو طريقة تفاعل النصوص فيما بينها. وعلى خلاف ما يراه ميشال فوكو (Michel Foucault)، فإنّ تحليل الخطاب يصادر على أنّ الخطاب الشفوي أو المكتوب هو مثل كون تبرز فيه القيود. وينبغي أن يُبرز التحليل ما يوجد في الخطاب من آثار القيود والتناقضات والمقاومة. من منظور جاك لاكان (Jacques Lacan)، تكوّن هذه الآثار "صلات رمزية" (بين ممثلين ودالّين، مثل موضوع القول) لا تتميّز عن العلاقات "الخيالية" فحسب (بين تمثيلات مثل "أنا" و"الآخر")، بل وكذلك تتميّز عن "واقع *الحامل*" (حضور في البنية، غياب الموضوع، المتكلم في القول).

يتميز تحليل الخطاب باعتماد الإحصاء، حيث إنّ بعض مقارباته تركز على التحليل الإحصائي النصّي؛ إذ يُدرك الخطاب بوصفه مجموعة من المعطيات النصية. هذه المقاربة التي توجد خاصة في علم الاجتماع، تستعمل برمجيات علمية تستعين بالحاسوب[1].

لقد تتابع خلال بداية الألفية الثالثة نشرُ معاجم تحليل الخطاب بالألمانية (Keller et al., 2001-2003) وبالفرنسية (Charaudeau, Maingueneau, 2002; Détrie, Siblot, Verine, 2001)؛ وهي معاجم تؤثث مشهدا متكاملا لحقل بحثيّ يقع

(1) Un logiciel comme Alceste opère une classification automatique des discours, dont il fournit une mise à plat inspirée des méthodes de la statistique descriptive. Prospéro fournit des outils interactifs d'investigation pour suivre l'évolution de grands dossiers dans lesquels les discours engagent des acteurs hétérogènes aux prises avec des conflits et des incertitudes. Lexico et SATO permettent une analyse textuelle dans laquelle le chercheur garde le contrôle de son processus de recherche et du cheminement de son analyse.

على حدود اختصاصات متعدّدة، مع إبراز انخراطه الشديد في اللسانيات. إنّ الكتّاب الذين يشتغلون على تحليل الخطاب ينتمون إلى شبكة واسعة، ولا يندرجون ضمن حركة موحّدة[1].

ويعلق بعض الباحثين العرب على اتجاهات "تحليل الخطاب" في الغرب بقوله: "إن أغلب اتجاهات تحليل الخطاب السائدة في الغرب- كما هو واضح- تميل إلى دراسة المرامي البعيدة للكلام أو النص من خلال وسائل متعددة"[2]. والواقع أنّ هذا الباحث يروم عبر هذا الكلام أن يمهّد الأمر ليعود إلى التراث النقدي والأصولي حتى يمتح منه ما يراه مساويا لـ"تحليل الخطاب"، فإذا به يعتبر أنّ مصطلح "لحن الخطاب" عند علماء أصول الفقه يكافئ مصطلح "تحليل الخطاب". ولعلّ مثل هذه الرغبة الجامحة في ربط الجديد بالقديم تُخفي مزالق نفسية تكاد العين تراها تتداح بين السطور.

قد تكون المقارنة المحايدة والمنهجية أجدى، ولكن يأبى كثير من الباحثين إلا ربطا تعسفيا، في كثير من الأحيان بين النظريات الغربية الحديثة وبين تراثنا النقدي والفكري، عموما، بشكل يدعو في كثير من الأحيان إلى مزيد التمعّن وإعمال العقل والتروّي.

(1) Jacques Guilhaumou, **Où va l'analyse du discours? Autour de la notion de formation discursive**

(2) انظر مساهمة الدكتور جمعان عبد الكريم، على الأنترنيت في موقع "منتدى اللسانيات" بتاريخ 30 أوت 2007.

مهمات تحليل الخطاب

لكلّ اختصاص علميّ هويته التي تشرّع له اشتغاله ووجوده أصلا على ساحة البحث. فإذا كان الطبّ يسعى إلى مساعدة الإنسان على الشفاء من الأمراض وإيجاد وسائل العلاج، فإنّ تحليل الخطاب يسعى – كما يرى دومينيك مانغنو – إلى "دراسة كلّ إنتاج قوليّ وتحليل الأقوال في سياقاتها". ولمّا كان هذا الحقل واسعا جدا والمدوّنة المُفترَضة مترامية الأطراف، فكيف يمكننا حصر مهمة تحليل الخطاب؟

ههنا يطرح مانغنو جملة من البدائل: منها حلّ يذكّرنا بما نجده في بعض كتب التراث، عندما تتعرّض إلى قضية الحدّ، حيث ترفض بعض المواقف الحدّ، باعتبار أنّ التسليم به يؤدّي إلى سلسلة من الدور: فكلّ حدّ يحتوي مفردات، هذه المفردات بدورها تستوجب الحدّ، فيصير الحادّ محدودا، وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية. فكان أن اقتُرح حلّ لهذه المعضلة يتمثل في إلغاء الحدّ، نظرا إلى عدم غنائه وإلى قيامه على الدور. وهذا الموقف نفسه – ذكره مانغنو في معرض عرضه لبدائل تعريف تحليل الخطاب. فهو يعتبر – استنادا إلى هذا الموقف – أنّ كلّ التطبيقات المسماة "تحليل الخطاب" والموجودة على الساحة، هي التي تعرّفه، ولا حاجة بنا إلى صناعة حدّ تقني أو منطقيّ جامع مانع لهذا التخصص. وينقد مانغنو هذا الحلّ الذي يجعلنا على خطر تحت رحمة حدود ضمنية أو مُقتضاة، قد تسير بنا على غير منهج.

أما البديل الآخر الذي يقترحه مانغنو فيقوم على محاولة تجنب مزالق ترك الحبل على الغارب كما يقترح البديل الأول، ومن ثمة فإنه يرى محاولة وضع حدّ صريح لتحليل الخطاب، لكيلا تبقى الأمور غير

منضبطة. بادئ ذي بدء، تحليل الخطاب هو ما أقوم به على خلاف ما يقوم به غيري. (على خلاف الموقف الأول: الذي يجعل كلّ ما يُقال هو تحليل للخطاب). وقد يُقترح تعريف فضفاض نحو ما يقول به فان ديك (Van Dijk) من أنّ تحليل الخطاب هو دراسة الأقوال الحقيقية في سياقات حقيقية.

وقد يكون الحدّ مضيّقا جدًا، على النحو الذي تقوم به المدرسة الأمريكية، حيث يرادف الخطابَ التفاعل الشفوي؛ أي التقاوُل. وبالمقابل فإنّ وجهة النظر هذه تعتبر الأقوال التي لا تنتمي إلى الخطاب الشفوي خطابات باردة فقيرة، تتسم دراستها بقلة الفائدة. طبعا هذا التصوّر يستحقّ النقاش، ولا يمكن التسليم به، على إطلاقه.

وينتهي مانغنو إلى الإقرار بأنّ حدّ العلم بالنظر إلى مادّته التي يشتغل عليها، لا يشكّل خصوصية ذات بال؛ فمعظم العلوم تشترك في تناول مدوّنات[1] ومواضيع مشتركة، لكن الاختلاف يكمن في زاوية النظر. فهذه الأخيرة هي التي تشكّل فرقا جوهريا وحاسما بين أنماط الدراسة العلمية للظواهر.

ولمّا كان تحليل الخطاب يشترك مع اللسانيات الاجتماعية والبلاغة الحجاجية والتحليل اللساني والتحليل المخاطبي، في الاهتمام بالخطاب اللغوي، فإنه أضحى من الضروري التمييز بين هذه العلوم المتجاورة عبر توضيح زاوية النظر الخصوصية لكلّ منها، حتى تتضح نقاط الائتلاف والاختلاف بينها. وههنا يتساءل مانغنو: هلّ يوجد حدّ

(1) سنهتمّ بمفهوم المدوّنة (corpus) في حقل تحليل الخطاب. انظر أدناه.

لتحليل الخطاب يكون في الوقت نفسه مَرِنًا لا يستثني أيّ قول، ودقيقا بما فيه الكفاية بحيث يوجّه البحث بطريقة أصيلة وخصبة.

إنّ تحليل الخطاب هو تحليل تمفصل النصّ والمكان الاجتماعي الذي نشأ فيه. النصّ وحده ينتمي إلى اللسانيات النصّية، أمّا المكان الاجتماعيّ فينتمي إلى اختصاصات من قبيل السوسيولوجيا والإثنولوجيا. أمّا تحليل الخطاب، فبدراسته جهة القول، يقع في الخطّ الفاصل بين هذه الاختصاصات.

إنه يقع في الخطّ الفاصل بينها، لا في جهة التواصل بينها، لأنها اختصاصات متمايزة، ولا يمكن لواحد منها أن يمتصّ الآخر. كما أنّ تحليل الخطاب لا يمكنه أن يُختزل في هذا الاختصاص أو ذاك. إنّ النصّ وسياقه الاجتماعي كوجه الورقة وقفاها.

الدال والمدلول والمرجع، عند دي سوسير ثالوث يمثله في تحليل الخطاب: النص والسياق الاجتماعي وجهة القول التي تمفصلهما.

ويضرب مانغنو أمثلة على هذا التجمّع من العناصر التي تمثل تحليل الخطاب؛ منها نشرة الأخبار المتلفزة. إنها ليست نصًا يقرأه المذيع فحسب، بل إنها مرتبطة بمحاور وأدوار ومصادر للمعلومات، أي باختصار، بجملة من التمثيلات. لا يوجد كلام غير مرتبط بأدوار وأماكن. إن تحليل الخطاب هو دراسة الأهداف المطلوب تحقيقها من وراء استعمال اللغة. ويحاول تبيّن القوانين اللغوية وأهداف الخطابات. من ذلك أنّ جنس الخطاب الذي يتبع المؤسسة الخطابية والمؤسّسة الكلامية، تحدّده الغاية المرجوّة من ورائه.

إنّ هـذا الحـدّ لتحليـل الخطـاب يجعلـه في مقابـل اللـسانيات الاجتماعية التي تهتمّ بالتنوّع اللساني ضـمن مجتمـع، وكـذلك في مقابـل تحليل المحادثات الذي يدرس عمل التعاون اللغوي في المحادثة، حيـث قـد تختلف القواعد داخل اللسان نفسه؛ نحو البرتغالية المستعملة في البرتغـال أو في البرازيل. إنّ اللسانيات الاجتماعيـة وتحليـل المحادثـات لهمـا توجّـه أنثروبولوجي أو نفسي، ويذكّراننا بأنّ الخطاب ليس حِكْرا على تخـصّص علميّ بعينه.

ويخلـص مـانغنو إلى اعتبـار تحليـل الخطـاب اختـصاصا غـير متجانس، حيث إنّ عوامل عديـدة تـؤثر فيـه وتجعلـه متفاوتـا في الرؤيـة والممارسة والمنهج بين تيار وآخر وبين مقاربة وأخرى. ويُجمـل مـا نغنـو هذه الاعتبارات والعوامل المؤثرة في تنويعات تحليل الخطاب في ما يلي:

1- التقاليد العلميـة والثقافيـة المختلفـة: فالتقاليـد العلميـة الأوروبيـة القارّية ذات منزع عقلاني تجريديّ، في حين أنّ التقاليـد الأمريكيـة اختبارية أمبيريقية.

2- الاختصاصات المرجعية: تحليل الخطاب يقع في مفـترق طـرق بـين العلـوم الإنـسانية: علـم الـنفس التحليلـي والأنثروبولوجيـا والسوسيولوجيا والتاريخ وعلم النفس الاجتماعي والمعـرفي، إلخ. ويقوم الاختـصاص المرجعـيّ بـدور مـساعد ونقـديّ، في الوقـت نفسه. فضلا عـن أنّ كـلّ اختـصاص يـصنع خطابـا. فقـد كانـت المدرسة الفرنسية لتحليل الخطاب في الستينات من القرن العـشرين متأثرة بعلم النفس التحليلي، في حين أنّ المدرسـة الأمريكيـة كـان تأثرها بالأنثروبولوجيا، أكثر.

3- وجـود مـدارس ذات زعامـات كاريزميـة: أسمـاء مرموقـة تـوفّر للمُريدين مُمكنات فلسفية عن الخطاب.

4- وجود مدارس متخصصة في دراسـة بعـض المـدوّنات، مـن قبيـل خطاب وسائل الإعلام والخطاب السياسي، إلخ. هذه الظاهرة لهـا نتائج؛ نحو ميل العمل على مدوّنة واحدة إلى تهميش الاختلافـات الفلسفية. أكثر من ذلك، قد يؤدي ذلك إلى تباينـات عميقـة علـى مستوى قابلية الرؤية المؤسسية والموارد البشرية والمادّية: فالخطـاب الإشهاريّ يمـارس قـدرا مـن الجاذبيـة والإغـراء أكـبر بكـثير مـن الخطاب الفلسفيّ.

5- الرؤية أو غياب الرؤى ذات البعد التطبيقي، الشديدة التنـوع مثـل تأهيل الصُمّ أوالابتكار الإشهاري أو تحرير المـرأة. نلاحـظ تطـور تحليل نقدي للخطاب مضادّ للجنس وللعِرْق، على سـبيل المثـال، يطمح إلى تغيير المجتمع.

6- المطالب المؤسّسية: ثمة باحثون من قبيل علماء الاجتمـاع وعلمـاء النفس، يتركون كاهل النص يُثقل بتهديد الـذوبان، علـى حـساب علوم اللغة. من ذلك أن تحليل الخطاب وتحليل المحتوى يـستجيبان لرؤيتين مختلفتين. ففي تحليل المحتوى المطبّق في السوسيولوجيا، يُعدّ الخطـاب قبـل كـلّ شـيء مـصدرا للمعلومـات، يـتمّ اسـتخراج المعلومات من نص كامل. أما رؤية تحليل الخطاب، فعلى النقـيض من ذلك، حيث يتعلـق الأمـر بفهـم اشـتغال الخطـاب ومؤسـسته الخطابية.

ولكن ثمة منافسة بين اختصاصات اللغة: لسانيات القول واختصاص الخطاب وتحليل الخطاب؛ فكل واحد منها يسعى إلى امتصاص الآخرين وصهرهما في بوتقته.

مدارس تحليل الخطاب الفرنسية

في الستينات من القرن العشرين، كان يُتحدَّث عن "مدرسة فرنسية" متأثرة، شديد التأثر، في الوقت نفسه بعلم النفس التحليلي وبالماركسية.

كان يُعتقد أنّ الناس يتكلمون ولكنهم لا يفقهون ما يقولون؛ تُغرّبهم الإيديولوجيا البورجوازية أو عقدة أوديب التي لم يتمّ هضمُها، على الوجه السليم. إنّ الإيديولوجيا واللاوعي يسكنان اللغةَ خفيةً، ويجب طردُهما منها. هكذا كان الخطاب النقديّ يلاحق الواقع الفكري، في تلك الفترة.

أمّا اليوم فلا توجد مدرسة مسيطرة في فرنسا، وكذا الشأن في كثير من البلاد. وما النزعة الفرنسية إلا طريقة في التفكير أكثر من كونها محصورة في القُطر الفرنسي. فكيف نتبيّن خصائص هذه الطريقة في التفكير؟

تقوم هذه الطريقة على جملة من الخصائص، أهمّها:

1- الاهتمام بالخطابات "المقيّدة" على النقيض من التفاعلات اللفظية / الكلامية العفوية.

إنها تهتمّ بالخطابات الروتينية المألوفة كالدرس الجامعي ونشرة الأخبار المُتلفزة؛ وهي خطابات تجري وفق منوالات معيّنة، دون أن يكون لها مؤلفون، ولكنها مُثبَّتةٌ وتستجيب لشروط مُهيمنة،

ولكنها قد تشهد تطوّرا طفيفا. هذه الخطابات "الروتينية" تحتل مساحة ضمن حقل أوسع يشمل المحادثات التي لا تخضع لمنوالات ثابتة ومُلزِمة، ويشمل كذلك الأجناس التي لها مؤلفون معروفون: فموليير (Molière) هو الذي اختار أن يسمّي مسرحية "دون جوان" (Don Juan) كوميديا.

ثمة قواعد إنتاج تتصل بالأجناس، بموجبها، لا يكفي، على سبيل المثال، أن تعرف اللغة حتى تقرأ نشرة الأخبار؛ على العكس من ذلك، فقد يمكنك أن تقرأ نشرة أخبار كُتبت بلغة لا تعرفها، إلى حدّ مّا.

هذا الانجذاب إلى الأمور "الروتينية" الخاضعة لقيود، يمكن تعليله بأنّ فرنسا من البلدان القديمة، ذات التقاليد الراسخة، على النقيض من الدول الحديثة، حيث الأمور فيها أقل ثباتا وأكثر حركية.

2- الإلحاح على المادة اللسانية: لا يمكن لتحليل الخطاب أن تقوم له قائمة إلا بالارتكاز على اللسانيات. وإذا اهتممنا بوظيفة علامة من العلامات، فذلك بحثا عن رابط يربطنا بجوهره اللسانيّ. خذ على سبيل المثال حرف الاستدراك (لكن)؛ فهذه الكلمة تؤدي وظائف كثيرة، شديدة الاختلاف، بل ومتناقضة أحيانا. فتحليل الخطاب يحاول أن يُحصيها. والنزعة الفرنسية تتساءل كيف ولِمَ هذه الكلمة بالذات وليست كلمة أخرى لها هذه المعاني الكثيرة. مثال آخر يمكن أن نضربه يتمثل في العبارات العديدة التي تدلّ على إعادة صياغة عبارة مذكورة، من قبيل: (أيْ التفسيرية) و(بعبارة اخرى) و(فلْنقُلْ)، إلخ. ولْنأخذْ عبارة (فَلْنَقُلْ)،

ولنُلاحظْ أنه فعل أمر مُصرَّف مع ضمير المتكلم الجمع، مسبوق بلام التوكيد وفاء الربط، في حين أنّ العبارتيْن المكافئتيْن له دلاليا، هما من طبيعتين مختلفتين عنه لغويا. فـ(أيْ) حرف و(بعبارة أخرى) شبه جملة، فنتساءل عن الصلة بين طبيعة هذه الكلمة ووظيفتها وهي تسم إعادة صياغة القول.

3- الاهتمام بنظريات التلفظ اللساني: لسانيات القول هي أحد التيارات التداولية، ولكنها تداولية أقل تأسيسا على النظريات اللسانية. يتعلق الأمر في العمق بالمرور من التحليل اللساني إلى استعمال اللسان. إننا نهتم بظواهر الإحالة (référence) والواصلات (embrayeurs) والإحالة القبلية (anaphore) أو التعديل (modalisation) (الصيغ modes ، المفارقةironie).

4- أولوية التخاطب (interdiscours): أن نتكلم، هو دائما أن نتكلم تحت وطأة خطابات أخرى قيلت أو يمكن أن تكون قد قيلت، نُحيل عليها أو نرفضها. لنبدأ كتابة رسالة: هل سنكتب: السيد... / سيدي العزيز... / عزيزي ... / سلامًا ...، إلخ.؟ فلنا في المنطلق كل البدايات الممكنة حتى وإن لم نأخذ بأيّ منها. وفي نسق آخر، لا يمكننا أن نُدليَ برأيٍ سياسيٍّ خارج الحقل السياسي، حتى وإن زعمنا رفضنا الحديث في السياسة مثل الآخرين.

فمن يتكلّم إذن؟ إنّ المتكلم ظفيرة (empilement) من الهويّات، والذاتيات المتصلة بحقول القول المختلفة والتي تعتمل فيه. الذاتية القولية تخترقها حزمة من الخطابات. وبالنتيجة، فإنها تُبنى عبر خطاب يظلّ هشّا: إنه لا وجود سابق لها قبل خطابها. وهذا الخطاب لم يكن قَطُّ جاهزا بشكل كامل في الذهن. وعموما، فليست النزعة الفرنسية مرتبطة بمكان واحد هو فرنسا، إنها فسيفساء، إنها تشابُهٌ عائليٌّ يقوم على مقتضيات ضمنية، في الغالب، وليست بالنظرية.

وقد لاحظ بعض الباحثين أن دومينيك مانغنو، انطلاقا من قراءة لميشال فوكو، اشتقّ وأدخل عددا من المفاهيم في ميدان تحليل الخطاب[1]. فمنهم من رأى أنّ جلب هذا العتاد المفهوميّ من الفلسفة يفتح الاختصاص على أبعاد للتطوير مهمّة، مع تأمين مرتكزات متينة له[2]، منهم من خالف هذه الوجهة من النظر[3].

وقد تساءل بعضهم عن نهوض الرغبة في جعل تحليل الخطاب اختصاصا على ضرب من التباعد العامّ تجاه الأدوات الاختبارية وتجاه مصادرها الخاصّة، عن طريق الاعتماد كيفما اتفق على ميتا - مَقْوَلة (métacatégorisation)، تُميِّع مفاهيم اللسانيات وتُحدُّ من غلواء الخشية من تاريخانية (l'historicité) النصوص، في آن[4].

(1) Sarfati, G.-E., **Eléments d'analyse du discours**, Paris, Nathan/Université, 1997, p.106.
(2) Ibid.
(3) Guilhaumou, Jacques, **Où va l'analyse du discours? Autour de la notion de formation discursive**, version éléctronique, 2004
(4) Ibid.

المدوّنة في تحليل الخطاب

تحتّل مسألة تكوين مدوّنة (corpus) مكانا مركزيّا في بدايات تحليل الخطاب، أي في أواخر السبعينات من القرن العشرين. وخصوصا في حقل تحليل الخطاب بوصفه موضوعا للتاريخ، كما ظهر في أعمال كلّ من ريجين روبين[1](1973) Régine Robin ومركز المعجمية السياسية لـ(l'ENS de Saint-Cloud).

والمدوّنة – حسب التعريف الكلاسيكيّ – تعني مجموعة محدّدة من النصوص يتمّ تطبيق منهج معيّن عليها. (Jean Dubois, 1969)يعود مصطلح تحليل الخطاب إلى مبادرة جون ديبواه في العدد 13 من مجلة (*Langages*) الصادر سنة 1969 إلى ترجمة نصّ للّساني الأمريكي هاريس كتبه سنة 1952 (« Discours analysis ») بـ(« Analyse de discours »). وتمّ فهمه مباشرة على أنه تحليل للأقوال. وقد بيّن بيير كوينتز (Pierre Kuentz 1977)) أنّ تحليل الخطاب يتقدّم أمر تكوين مدوّنة من الجُمل تنشأ حولها النظرية النحوية. ويعني بذلك سذاجات اللسانيّ في فهمه للسان، حيث يعتقد أنه يستطيع إنتاج أمثلة عبر استخراج جُمل من الخطاب. إنّ اللسانيّ – إذ يرفض التساؤل حول عملية الاستراج تلك – إنما يفترض تطابقا بين اللسان والخطاب: إنه يُحيّدُ الأثر الخطابيّ. ونرى كيف أنّ تحليل الخطاب يتساءل، منذ البداية، عن مادية اللسان، في صميم السمة الخطابية للأقوال ذاتها.

(1) Robin, Régine, **Histoire et linguistique**, Paris, Armand Colin, 1973.

ومع ذلك يُطرح سؤال يتناظر مع ما قيل: إلى أيّ حدّ تُوجّه طريقةُ اللسانيّ في تكوين مدوّنته من الجُمَل تكوينَ المدوّنة في تحليل الأقوال؟

ولعلّه يمكن اختزال خطوات إجراء تحليل الخطاب، إجمالا، كما يلي. بدايةً تُستمدّ ممّا يسمّيه جون ديبواه كون الخطاب، أي كلّ الأقوال الواردة في عصر أو المنسوبة إلى قائل أو إلى مجموعة اجتماعية. ويتمّ تقسيمها اعتباطيا انطلاقا من الغايات والمواضيع وأحكام القيمة. وفي مرحلة ثانية، في صميم جنس الخطاب السياسي الذي جرى في أحداث ماي 1968، لن نحتفظ في النهاية سوى بمجموعة من الجمل التي تحتوي، في بعض المواقع التركيبية، ولتكن هذه الكلمة المحورية أو تلك. إنّ هذه المرحلة الأخيرة هي التي تُنشئ المدوّنة، حقيقةً: إنّ تطبيق قواعد التكافؤ النحويّ التي اقترحها هاريس، تسمح بالحصول على مجموعة جدولية من الجمل المُحوّلة، أي على سلسلة المسندات إلى الكلمات المحورية.

لقد ظهر علم القيس المعجميّ (lexicométrie) في السبعينات من القرن العشرين، مع الدراسة الرائدة لأحداث ماي 1968 (Tournier *et alii*, 1975): ويُلاحظ سبْقُه من خلال الصيغة الأولى لمجلة (*Mots كلمات*)، إلى حدود نهاية الثمانينات. إنّ ما يفتحه علم القيس المعجمي، عبر تكميم الوقائع اللسانية، من مسلك نحو لسانيات المدوّنة، وهي لسانيات تعرّف المدوّنة بوصفها تجميعا لمعطيات لغوية مختارة ومنظّمة حسب معايير لسانية صريحة، لتكون عيّنة لغوية (Habert, Nazarenko & Salem, 1997 : 11). وبذلك هي توجد حلاّ لجوانب من مشكلة اللسانيين تجاه المدوّنة. وينتهي اللساني في الواقع

بتركيز اهتمامه على إغناء المدوّنة، عبر بنوك المعطيات وزيادة حجمها وتحسين مداخلها إلى المدوّنات.

لكن استدعاء المؤرخ لعلم القيس المعجمي، إنما هو قبل كل شيء، وفي مقاربة أولى، لكشف تعقيد الظواهر القولية والبلاغية التي تشكّل السطح الخطابيّ للنّصّ، على النقيض من الأقوال التي تُبَنْيِنُهُ دلاليا حول كلمات محورية، دُرست في التحليل الهاريسي. ثمة، بعد ذلك إجراء تحليل يرتكز في المنطلق على مدوّنة مصغّرة، لم تعُد مدوّنة أقوال، بل جدولا معجميا ذا مدخل مزدوج لأشكال المدوّنة، التي يجري إحصاؤها آليّا، ويتمّ توزيعها على قاعدة تواترها المطلق والنسبيّ في مختلف أقسام الكلام[1].

(1) **Jacques Guilhaumou**, « Le corpus en analyse de discours : perspective historique », Corpus [En ligne], n°1 | novembre 2002, mis en ligne le 15 décembre 2003, Consulté le 04 septembre 2009. URL : http://corpus.revues.org/index8.html

خاتمة

لقد سعينا في هذا البحث إلى تقديم بعض مسائل تحليل الخطاب تقديما لا يخلو من تقصير، حيث لم نصلْ إلى الإلمام بمباحثه ولا إلى الإحاطة بمسائله، والحق أنّ هدفنا الرئيس تمثل في تقديم نبذة يسيرة عن هذا الحقل البحثي المترامي، وذلك تمهيدا لكي يواصل القارئ الغوص على درر هذا الحقل في مظانه.

ولمّا كانت الكتابات العربية التي تتناول هذا التوجه في دراسة الإنسانيات قليلة، فقد استعنّا بترجمة بعض النصوص ولمّ شتات بعض المفاهيم، كي يعمد القارئ اعتمادا على الاستئناس بها وبغيرها إلى محاولة رسم صورة مّا أدقّ لتحليل الخطاب.

وقد باشرنا في هذا البحث العمل على توفير بسطة نظرة تشتمل على تعريف الخطاب وإبراز بعض مجالات تحليله، فضلا عن تسليط الضوء على بعض منوالاته وأهدافه، دون إهمال الإشارة إلى أهمية الجوانب الإجرائية في مقاربة النصوص ضمن منظور تحليل الخطاب.

وكان يمكن أن يتسع البحث – لولا ضيق المجال – للوقوف على حدود تحليل الخطاب وعوائقه وبعض الأمور الملابسة له، ممّا ندعو القارئ إلى النظر فيها عبر التعمّق في مطالعة المظانّ التي اهتمّت بهذا الحقل البحثيّ، وقد أوردنا جزءا يسيرا منها في قائمة المراجع، ولا سيما الأجنبية منها أو المعرّبة.